[محاسبة النَّفس سبيلٌ إلى الحياة الطَّيبة]

اَلْخُطْبَةُ الْأُولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينَةِ الْأَرْضِ وَنَفْخَةِ السَّمَاءِ، وَأَوْدَعَ فِيمَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَكْوَانِ سِرَّ النَّمَاءِ، نَحْمَدُهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَلْهَمَ وَأَوْدَعَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ فَأَبْدَعَ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ يَقِينٍ، تُوقِظُ الضَّمِيرَ مِنْ سُبَاتِ غَفْلَتِهِ، وَتُحَاسِبُ النَّفْسَ بِمُشَاهَدَةِ الْمُنْعِمِ فِي نِعْمَتِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَمُصْطَفَاهُ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلِيلُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْأَبْرَارِ الْخِيَرَةِ، وَصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَيَا مَعَاشِرَ الْـمُؤْمِنِينَ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. عِبَادَ اللَّهِ؛ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَسَاسٌ فِي مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَإِيقَاظِ الضَّمِيرِ؛ وَالْـمُحَاسَبَةُ الْـمَفْهُومَةُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. مُحَاطَةٌ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الْـمَأْمُورِ بِهَا مَرَّتَيْنِ قَبْلَ الْـمُحَاسَبَةِ وَبَعْدَهَا، وَخُتِمَتِ الْآيَةُ بِتَأْكِيدِ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ فِي كُلِّ أَعْمَالِه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وَاسْتِحْضَارُ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ؛ هُوَ أَكْبَرُ مُسَاعِدٍ عَلَى مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ؛ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾. وَالضَّمِيرُ – إِخْوَةَ الْإِيمَانِ -، هُوَ: الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا؛ كَمَا قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. وَمُجْمَلُ مَا قَالَ الْـمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى (الْفِطْرَةِ): أَنَّهَا الدِّينُ وَالْجِبِلَّةُ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ طَاعَةً لِلَّهِ وَعُبُودِيَّةً لَهُ؛ بِمَا يَجْعَلُهُ يَرْكَنُ لِلْفَضِيلَةِ دُونَ الرَّذِيلَةِ، وَلِلْحَسَنِ دُونَ الْقَبِيحِ، وَيَشْعُرُ بِالرِّضَا عِنْدَ مُوَافَقَةِ أَمْرِ اللَّهِ، وَبِعَدَمِ الِارْتِيَاحِ عِنْدَ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ.

فَإِنْ طَغَتِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ عَلَى الْفِطْرَةِ بِأَهْوَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَشُبُهَاتِهَا، أَضْحَتْ خَافِتَةً وَلَيْسَ لَهَا تَأْثِيرٌ، فَتَكُونُ فَاقِدَةً لِشُعُورِهَا وَإِحْسَاسِهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُرَكِّزُ عَلَى الشُّعُورِ فِي الْإِنْسَانِ، وَمَدَى أَهَمِّيَّتِهِ فِي حَيَاةِ الضَّمِيرِ وَيَقَظَتِهِ، وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَتَرْبِيَتِهَا عَلَى الْخَيْرِ، وَصِيَانَةِ الْأَعْمَالِ مِنَ الضَّيَاعِ؛ وَحُبُوطُ الْأَعْمَالِ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِهَا؛ كَمَا قَالَ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛

وَغِيَابُ الشُّعُورِ بِحُبُوطِ الْأَعْمَالِ كِنَايَةٌ عَنِ الْغَفْلَةِ الْـمُؤَدِّيَةِ إِلَى اسْتِرْسَالِ النَّفْسِ فِي غُلَوَائِهَا وَالتَّمَادِي عَلَى الْبَاطِلِ.

رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُواْ: نَعَمْ، قَالَ: ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ). فَعِنْدَمَا تَسْتَعْظِمُ النَّفْسُ الْإِثْمَ وَتَخَافُ عَوَاقِبَهُ، فَذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ الْـمُؤَدِّي بِهَا بَعْدَ اللَّوْمِ وَالْـمُحَاسَبَةِ إِلَى الطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّعَادَةِ الْحَقَّةِ.

وَلِذَا كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ، يَحْرِصُونَ عَلَى مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، اِمْتِثَالًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ: (حَاسِبُواْ أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُواْ، وَتَزَيَّنُواْ لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا). وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتِ الْـمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ).

نَفَعَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِالْقُرْآنِ الْـمُبِينِ، وَبِحَدِيثِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَجَارَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْـمُهِينِ، وَغَفَرَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْـمُسْلِمِينَ، آمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ مَا تَوَالَتِ الصَّلَوَاتُ وَالتَّسْلِيمَاتُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَصَحَابَتِهِ الْـمَهْدِيِّينَ الْـمُهْتَدِينَ، وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَيَا عِبَادَ اللَّهِ

إِذَا أَدْرَكْنَا أَنَّ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ وَتَزْكِيَتَهَا بِالسُّلُوكِ الْحَسَنِ مِنْ أُولَى أَوْلَوِيَّاتِ الْـمُسْلِمِ، وَأَنَّهَا السَّبِيلُ الْأَمْثَلُ إِلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الْـمَوْعُودَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّ أَسْهَلَ الطُّرُقِ إِلَى ذَلِكَ وَأَبْيَنَهَا هُوَ: الِاسْتِمْسَاكُ بِحَبْلِ اللَّهِ الْـمَتِينِ مِنْ خِلَالَ أُمُورٍ؛ أَهَمُّهَا:

أَوَّلًا: مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ الْبَاعِثِ عَلَى الْيَقَظَةِ وَالْـمُرَاقَبَةِ الدَّائِمَةِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)، وَالْأَخْذُ بِوِرْدٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِلِاسْتِمَاعِ إِلَى وَازِعِ الْقُرْآنِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، وَالتَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، حَيْثُ يُقِرُّ الْعَبْدُ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ بِعُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَافْتِقَارِهِ إِلَى مَعُونَتِهِ؛ سَائِلًا إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ أُمُورِهِ.

ثَانِيًا: اَلْـمُحَافَظَةُ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَأَدَاؤُهَا فِي الْجَمَاعَاتِ؛ فَفِيهَا مِنْ أَسْرَارِ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَتَحْلِيَتِهَا بِالْفَضَائِلِ مَا نَطَقَتْ بِهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ

النَّبَوِيَّةُ؛ وَلِذَا شَرَعَهَا اللهُ تَعَالَى مُتَوَالِيَةً وَمُتَتَابِعَةً عَلَى الْعِبَادِ يَتَقَلَّبُونَ فِيهَا؛ فَمِنْ صَلَاةٍ إِلَى صِيَامٍ إِلَى زَكَاةٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الطَّاعَاتِ.

ثَالِثًا: اِتِّقَاءُ ظُلْمِ الْعِبَادِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؛ إِذْ مِنْ أَمْرَاضِ النُّفُوسِ: اَلْأَنَانِيَةُ وَالْكِبْرُ وَحُبُّ الذَّاتِ وَالْبُخْلُ وَالشُّحُّ؛ وَكُلُّهَا أَمْرَاضٌ تُعْمِي الْقَلْبَ، وَتُوقِعُ صَاحِبَهُ فِي الظُّلْمِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ: (اَلظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

رَابِعًا: مُلَازَمَةُ الصَّالِحِينَ وَمَجَالِسِ الْخَيْرِ؛ فَبِمُجَالِسَةِ الْأَخْيَارِ تَعْتَبِرُ النَّفْسُ وَتَتَّعِظُ، وَتَسْمُو إِلَى الْفَضَائِلِ، وَتَتَنَكَّرُ لِلرَّذَائِلِ.

هَذَا؛ وَأَكْثِرُواْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ وَحَبِيبِ الْحَقِّ، مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ؛ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَعَنْ بَاقِي صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ؛ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِكَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَانْصُرِ اللَّهُمَّ مَنْ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ عِبَادِكَ، وَبَسَطْتَ يَدَهُ فِي أَرْضِكَ وَبِلَادِكَ، وَلِيَّ أَمْرِنا خَادمَ الحَرَمَينِ الشَرِيفَينِ ، نَصْرًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ، وَتَحْمِي بِهِ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، اَللَّهُمَّ احْفَظْهُ بِحِفْظِ كِتَابِكَ، وَأَلْبِسْهُ أَرْدِيَةَ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَاجْعَلْ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَقِرَّ عَيْنَهُ بِوَلِيِّ عَهْدِهِ إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَارْحَمْ وَالِدِينَا، وَارْحَمْ مَوْتَانَا وَمَوْتَى الْمُسْلِمِينَ، وَارْحَمْ بِفَضْلِكَ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، اَلْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، اَللَّهُمَّ آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اَللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ فَضْلًا مِنْكَ وَنِعْمَةً، اَللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا صَلَاتَنَا وَصِيَامِنَا وَقِيامِنَا وَرُكُوعَنَا وَسُجُودَنَا، وَسَائِرَ أَعْمَالِنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ،رَبَّنَا أَجْرَيْتَ السَحَابَ وأَنْزَلْتَ الكِتَابَ وَهَزَمْتَ الأَحْزَبَ اهْزِمْ أعداءَ المِلةِوَالدِيْن.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.